هاجرة السودان الوطنية

أم درمان

للأستاذ على العمارى

لعل الشرقيين أزهد الشعوب فى معرفة بلادهم ، فالحديث عنها ليس بالمذب المستساغ عند أكثرهم ، وربما بقى الواحد من مثقفيهم الدهر الطويل فى مدينة من المدن دون أن يعرف كثيرا

قرون أخرى

ولكن على الأمة الإسلامية واجبا آخر وهو التعمق فى دراسة المبادئ الإسلامية و التشبث بها والإخلاص لها ريثما تتقدم بخطى ثابتة لاستكمال القوة، وذلك لأن الضعيف ربما يفقد الثقة فى نفسه وفى مبادئه. وهل من شك فى أن الأمة الإسلامية إن هى تخلت عن مبادئها لحصولها على القوة سوف لا يكون ذا مغزى كبير . ولعل من مظاهر هذا التخلى عن المبادئ السامية تخاذل الشعوب الإسلامية لأعراض تافهة خسيسة ، واعتبارات دبلوماسية مغرضة . ألا فلتسترد هذه الأمة الثقة بنفسها والإيمان بمبادئها حتى تثبت جدارتها لمزاولة القوة فى سبيل خير الإنسانية

وأخيرا تتلخص مأساة « إنسان العصر الحاضر » عند إقبال فى قوله :

العشق يقصه والعقل ينهشه
لا يستطيع قياد العقل بالنظر
دور الكواكب لا يخفى على درك
لا يستطيع هدى فى عالم الفكر

العشق هو الإيمان بالمبادئ العليا . والعقل هو التقدم فى العلوم والفنون . والنظر هو الشعور بالمسئولية أمام الله

محمد يوسف

أو قليلا عن تاريخها ومعالمها . وقد يقرأ فى كل كتاب إلا الكتاب الذى يتحدث عن البلدان وتاريخها ، وعما فيها من آثار قديمة أو منشآت حديثة . ولا أنس أبدا أنى كنت مسافرا مرة فى القطار الذى يبرح القاهرة إلى أسوان ، وكان بجانبى رجل فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، ويبدو من هيئة حديثه أنه من ذوى الثراء ، وتشعب بنا الحديث فنونا حتى وصل القطار إلى مدينة المنيا عروس الصعيد ، فأطل الرجل من النافذة ثم عاد وفى وجهه آثار الدهشة والاستغراب وقال بلهجة المأخوذ : غريبة ! إن فى هذا البلد شوارع منظمة وأبنية جميلة ؟ قلت له : أمصرى أنت ؟ قال : نعم . قلت أين تعيش ؟ قال : فى الإسكندرية ، قلت : أظنك تعرف روما وباريس ولندن معرفة دقيقة . قال نعم ، قلت : أما سافرت أبدا إلى الصعيد ؟ قال : لا ، والفكرة التى فى ذهنى عنها تختلف كل الاختلاف عما أراه الآن . قلت : ماهذا ، لست مصريا وإن كان اسمك رمسيس الأول !!

كما لا أنس أنى لقيت رجلا مثقفا قضى فى مدينة أم درمان أكثر من أربع سنوات ، وهو يسكن فى الجانب الغربى منها جد قريب من دار المعهد العلمى ، وقد جرى مرة بيننا حديث فى شؤون المعهد فسألنى أين تقع دار هذا المعهد ؟

وفى يقينى أن هذا الجهل يرجع إلى ضعف الشعور القومى فى النفوس ، فإنه كلما قوى هذا الشعور أحس صاحبه أن كل شبر من أرض الوطن إنما هو ملكه ، حتم عليه أن يعرفه ، وأن يعرف تاريخه ، وطبعى أنى لا أقصد أن كل المثقفين يجهلون معالم أوطانهم ، وإنما أعنى أن الجمهرة الغالبة لا تعنى بهذه الناحية العناية الواجبة ، وقد حملنى على كتابة هذا المقال ما لمسته فى كثير من المتعلمين عندنا من جهل بشؤون المدن السودانية ،

* * *

ينساب النيل الأبيض منحدرا من المنطقة الاستوائية ، ويجرى النيل الأزرق هابطا من مرتفعات الحبشة ، ويمران بمدينة الخرطوم ، أحدهما على جانبها الغربى ، والآخر على جانبها الشرقى ، وما يكادان يصلان إلى نهايتها الغربية البحرية حتى يلتقيا ، ثم يسيران متماسكين مسافة قصيرة ، ويستطيع النظر

السطحي أن يميز بينهما حيث يفصلها خيط دقيق ، ولكن هذا التناكر لا يستمر طويلا فيختلطان ، ويسيران ممتزجين ، وتقع الخرطوم بينهما ، وتقع الخرطوم بحرى على جانب النيل الأزرق الشرقي ، أما أم درمان فتقع على الضفة الغربية للنيل الكبير . وقبيل التقاء النيلين تقوم جزائر جميلة تسمى جزائر « المقرن » وهي من أحسن الأمكنة وأطيبها هواء ، وفيها يقول الأستاذ العقاد :

تقسم حلمي بالجزيرة وقفتي بالمقرن
حلمان حظها خيالا دون حظ الأعين
ما دمت بينهما فما أنا سائل عن مسكني

ويعجبني قول أحد الكتاب السودانيين يصف التقاء النيلين عند المقرن ، إذ يقول : (هل استمتعت بذياك المرأى الطبيعي البديع الساحر ؟ مرأى ملتقى النيلين الحبيبين ، لقد أتى أحدهما ينساب من أقصى الجنوب ، والآخر ينحدر من أقصى الشرق ، فالتقيا منذ الأزل في هذا المكان ، بعد هاتيك الرحلة الطويلة ، فأصبح هذا المكان مكان التقائهما علما مقرونا باسميهما ، أنهما قد التقيا عند هذا المكان ، واقترنا في شوق ، بل تصافحا بجسميهما ، أنهما لم يفكرا في الفكاك من هذا الاقتران ولم يفكرا ولما التقينا قرب الشوق جهده حبيبين قاضا لوعة وعتابا
كأن حبيبا في خلال حبيبه تسرب أثناء العناق وغابا

ولشد ما أعجبني تمثل الكاتب بهذين البيتين في هذا الموضع

ويصل بين الخرطوم وأم درمان جسر جميل ، أقيم سنة ١٩٢٨ . أما مدينة أم درمان فهي مدينة كبيرة مبانيها فسيحة ، وشوارعها متسعة . وأول من عمر أم درمان الشمالية حكومة المهدية ، أما جنوبها فكان حلة صغيرة قائمة في سهل فسيح رملي لا شجر فيه ، وكان يسكن هذه الحلة الأهلون من (الفتيحاب) وهم سكان الخرطوم الأصليون كذلك ، وكانت لهم منازل متفرقة على شاطئ النيل الأبيض الغربي ، والفتيحاب من قبائل الجوعية ، وهم وإخوانهم من الجيعاب ، والسروراب ، والجعليين والميرغاب ، والرباطاب ، والشايقية ، ينتسبون إلى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه . وقد استولى المهدي على أم درمان سنة ١٨٨٥ م ولما جاء الخليفة التعايشي حبب الى الناس السكنى فيها ، فبنيت الدور ، واتسع عمرانها . وكل منازلها طبقة واحدة إلا النادر القليل ، وفيها مبان كثيرة بالحجر على النظام الحديث ، وقد كان سكان المدينة قبل المهدية ٤٠٠ ألف نسمة ، ثم تناقص هذا العدد إلى ٢٥ ألف في سنة ١٩٠٣ ، أما عدد السكان - الآن حسب آخر إحصاء - فهو نحو ١٣٧ ألف نسمة

ويخترق أم درمان شارع طويل يسير فيه الترام يبتدئ من الجسر الفاصل بينها وبين الخرطوم ، وينتهي في الجانب الشرقي منها حيث يسير قليلا على النيل . أما غربها وشمالها فصحراء لا نبت فيها ولا ماء . ويقع جبل كرري المشهور في التاريخ شماليها ، والهابط منه إلى المدينة يأخذ في شارع يسمى بهذا الاسم أيضاً

وفي أم درمان مدارس حكومية وأهلية ، وسطى ، وثانوية ، وأولية ، فيها مدارس الأحفاد ، وهي مدارس ذات فضل لا ينكر على السودان ، والمدرسة الأهلية ، وفيها مدارس الراهبات للبنات وهي روضة وابتدائي وثانوي . وبهذه المناسبة أذكر أن السودانيين غير متحمسين كثيرا لتعليم البنت . وفي ظاهر أم درمان من الناحية الغربية يقوم بناء المعهد العلمي ، وهو معهد قام منذ أربعين سنة تقريباً ، وكانت الدراسة في مسجد أم درمان الكبير وانتقلت قريبا إلى هذه الدار الجديدة ، وفي المعهد الآن نظامان : نظام قديم ، ونظام جديد تشرف عليه الحكومة إشرافا كليا ، تضع له المناهج ، وتعين المدرسين ، والمعهد ابتدائي وثانوي وعالي ، ومنه يتخرج حاملو الشهادة العالية على نظام الأزهر القديم ، وهم يؤدون الآن مهمتهم في السودان بجدارة وإخلاص ، ويراد أن يكون في المعهد - بعد الثانوي - كليات ، على نظام كليات الأزهر ، ولا تزال المعاهد في الأقاليم ترتبط بهذا المعهد ارتباطا ما ، وفي هذا المعهد يقول الشاعر التيجاني يوسف بشير :

السحر فيك وفيك من أسبابه دعة المدل بمبقرى شبابه
قسم البقاء إليك في أقداره من شاد مجدك في قديم كتابه
وأفاض فيك من الهدى آياته ومن النهى والسحر ملء نصابه
اليوم يدفعني الحنين فأنثني ولهان مضطربا إلى أعتابه
سبق الهوى عيني في مضماره وجرى وأجفل خاطري من بابه
ودفنت غض صباي تحت ظلاله ودفنت بيض سني في محرابه

ولقيت من عنت (الزيود) مشاكلا

وبكيت من (عمرو) ومن إعرابه

وطلاب المعهد يبقلون ـ الآن ـ نحو الستمائة طالب ، أما مدرسوه فنحو الأربعين ، منهم منتدبون من الأزهر الشريف وهم خمسة ، ومنهم سودانيون متخرجون فى الأزهر ، وبعضهم من خريجى كلية غردون أو المدارس الثانوية ، وأكثرهم متخرجون فى المعهد ذاته ، وشيخ المعهد الآن مفتى السودان السابق الشيخ أبو شامة عبد المحمود ، وهو سودانى ، وكل من سبقه فى مشيخة المعهد كان من السودانيين أيضا

وفى أم درمان أكثر دور الأحزاب السياسية ، وهى من وهى من هذه الناحية تمتاز عن الخرطوم . كما تفد إليها السلع من كل أنحاء السودان ، وفيها يمنيون كثيرون ، وهنود ، وشوام ، ويونان ، ومصريون ، وكثير من التجارات فى أيدى هؤلاء . وأهل أم درمان ، كأهل السودان جميعا ، متدينون ، يؤدون الصلوات فى أوقاتها ، ويخرجون الزكاة ، والأمن والأمانة متوفران عندهم

وفى أم درمان تقوم قبة المهدى ، وفيها بعض آثاره ومخلفاته ، وأمامها ساحة كبيرة محوطة بسور مرتفع مستطيل طوله ٤٦٠ ياردة ، وعرضه ٣٥٠ ياردة ، وفيها محطة الإذاعة السودانية ، ومحطة الأرسال

وقد لفت نظرى وأنا أطالع فى دواوين الشعراء السودانيين أنى لم أجد لأم درمان موضعا فى أشعارهم ، مع أنى وجدت قصائد فى مدن كثيرة من مدن السودان ، فى الأبيض عروس الرمال ، وفى النهود ، وفى كسلا ، وفى سنار حيث يقول شاعرهم :

زرت سنار والجوانح أسرى ... زفرات هدت قوى الصبر هدا
أسعدتنا فيها الغداة دموع ... لم تخنا بالأمس فى دار سعدى
إن محا الدهر حسنها فلقد كا ... نت مراداً للمتقين وخلدا
كم لها فى الرقاب منا ديون ... وعزيز على ألا تؤدى
وجميل لأهلها عند أهلى ... ويد بالصنائع الغر تندى

وهى قصيدة تذكرنى بقصيدة البحترى فى إيوان كسرى ، وسنار كانت عاصمة مملكة الفونج ، وهى مملكة شهيرة فى التاريخ ، وبعضهم ينسب هؤلاء إلى النمر بن يزيد بن عبد الملك ، هربوا إلى السودان حين أساء العباسيون معاملة الأمويين

والوقت الذى لا تجد فيه قصيدة واحدة فى دواوين الشعراء عن أم درمان ؛ تجد قصيدة لأحد شعرائهم المشهورين فى باريس مع أنه لم يبرح السودان !

وقد أهدى إلى بعض الأصدقاء قصيدة فى أم درمان مخطوطة لأحد الشعراء ، كما قرأت أغنية تذاع من محطة الإذاعة عن أم درمان وهى أغنية جميلة

(وبعد) فهذه لمحة تعرف ، وفيها بعض الغناء

على العمارى

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

سفير مصر فى الباكستان

ثمن هذا المجلد ثلاثون قرشا عدا أجرة البريد

وهو يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة